دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلّد 41، ملحق 3، 2014

أنواع (لمّا) ومعانيها في القرآن الكريم في ضوء تفسير الكشاف للزمخشري

*نزار عطا الله أحمد صالح **

ملخص

يتناول هذا البحث أنواع (لمّا) ومعانيها في القرآن الكريم من خلال تفسير الكشاف للزمخشري، حيث تحدث فيه الباحث عن ثقافة الزمخشري النحوية والبيانية، وعن تفسيره الكشاف من حيث أهميته ومنهج مؤلفه فيه. كما تحدث فيه الباحث عن أنواع (لمّا) الثلاثة في القرآن الكريم (الحينية، والجازمة، والاستثنائية) مبيناً موقف الزمخشري من كل نوع من هذه الأنواع، وإشاراته إلى لطائف ودقائق استعمالاتها في آي القرآن الكريم . كما قارن فيه الباحث بين آراء الزمخشري حول أنواع (لمّا) الثلاثة وبين آراء غيره من المفسرين والنحاة، مبيناً تلك الآراء التي تفرد بها الزمخشري. وقد انتهى الباحث إلى أن الزمخشري لم يصدر في آرائه حول (لمّا) عن مذهبه الإعتزالي، بل عن براعته في علوم النحو والبيان مما أكسب آراءه قوة وثباتاً. ثم كانت الخاتمة التي أودعها الباحث أهم نتائج البحث.

الكلمات الدالة: أنواع (لما)، معاني (لما)، تفسير الكشاف الزمخشري.

المقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أما بعد.

فقد حاولت في هذا البحث دراسة كلمة (لمّا) في القرآن الكريم، التي كانت تختلف معانيها ودلالاتها في السياق القرآني باختلاف تركيب الجملة التي جاءت (لمّا) في سياقها، حيث كان للنحاة والمفسرين المهتمين بمعاني ألفاظ القرآن ودقائق استعمالاتها آراء حولها وحول أنواعها ووظائف كل نوع من جهة، وحول حرفيتها واسميتها من جهة أخرى.

وقد عرضت لِـ كلمة (لمّا) وأنواعها في ضوء تفسير (الكشّاف) للإمام أبي القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري (538هـ)، وتفسير الكشّاف، وهو من أعظم التفاسير التي يتجلى فيها البحث عن بواطن إعجاز القرآن الكريم وأساليب نظمه من خلال اهتمامه بمعاني الألفاظ، وفصاحة استخدامها، وما تؤديه في تراكيب الجمل، وما يدور حول هذا كله من إشارات نحوية وإعرابية.

من هنا، فإن أهمية هذا البحث تأتي من خلال ربط التراكيب النحوية بمعاني السياق القرآني، متجلياً ذلك في الحديث حول (لمّا) الحينية وما عرض فيها من إشارات حول اسميتها وحرفيتها وما يقتضيه ذلك، وبواطن الإعجاز وأسرار النظم في حذف جوابها، والمعاني التي تؤديها، وفوائد تعاقب) لمّا (واتصالها بالفاء، وما يدور حول ذلك من ارتباط النحو بالمعنى.

ويتجلى لنا علم الزمخشري كذلك في إشاراته حول (لمّا) الجازمة، وكيف أنها تؤدي معاني لا يمكن أن تؤديها (لم) الجازمة، مع الكشف عن أهم فرق بينها وبين (لم) من خلال وجهة نظر الزمخشري، مع العرض لِـ (لمّا) الاستثنائية وتعليقات الزمخشري حول قراءات الآيات التي جاءت فيها (لمّا) بمعنى إلا الاستثنائية، وكل هذا يجعل من هذا البحث بحثاً يحمل في طياته أسباباً تحفز الباحث للبحث فيه.

وقد كان المصدر الأساسي لهذا البحث هو تفسير الكشاف الذي قمت بالوقوف على جميع إشارات الزمخشري حول الآيات التي وردت فيها (لمّا) معملا الفكر والعقل فيها إلى أن تكونت لدي هذه المادة في هذا البحث مستعيناً بكتب النحو وما دار من حديث عن (لمّا) وأنواعها، كما رجعت إلى كتب التفسير مستقصياً ما جاء فيها حول (لمّا)، خاصاً بالذكر "البحر المحيط" لأبي حيّان، إذ لم يقف الباحث على دراسة تفرد لكلمة (لمّا) وأنواعها كتاباً خاصاً أو بحثاً مستقلاً، مما يجعل منها، في رأي الباحث– محاولة متفردة في استقصاء آراء الزمخشري في (لمّا) ومحاورتها ومناقشتها، مع مقارنة ما جاء عند

* كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2013/6/17، وتاريخ قبوله 2013/11/6.

© 2014 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

الزمخشري بما جاء عند غيره من النحاة والمفسرين في هذه اللفظة.

مشكلة الدراسة

تظهر مشكلة الدراسة من خلال محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية:

أولا: ما أثر ورود " لما " في السياق القرآني على المعاني والدلالات اللغوية المستفادة من ورودها في النص

ثانيا: ما اللطائف التفسيرية التي استخلصها الإمام الزمخشري للحرف " لما " مقارنة بالحرف " لم " ؟

ثالثا: ما الدلائل الإعجازية المترتبة على استخدام " لما " في السياق القرآني عند الإمام الزمخشري ؟

منهج البحث

اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي القائم على:

أولا: استقراء جميع إشارات الزمخشري في تفسير الكشاف حول الآيات التي وردت فيها (لمّا) مستعيناً بكتب النحو وما دار من حديث عن (لمّا) وأنواعها .

ثانيا: المقارنة بين ما جاء في بعض كتب التفسير حول (لمّا)، خاصة تفسير "البحر المحيط" لأبي حيّان، وبين آراء الزمخشري في (لمّا) ومحاورتها ومناقشتها، مع مقارنة ما جاء عند الزمخشري بما جاء عند غيره من النحاة والمفسرين في هذه اللفظة.

وقد فرضت طبيعة الموضوع أن يجيء البحث في ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: تحدث الباحث فيه عن الزمخشري، ثم أهمية الكشّاف ومنهج الزمخشري فيه، لأن هذا يقود إلى أهم خصائص الزمخشري في كشافه، من خلال ربطه بين التراكيب النحوية وعلوم المعاني والدلالة لارتباط ذلك كله بـ (لمّا ومعانيها)

المبحث الثاني: فقد عرض الباحث فيه لأنواع (لمّا) وقضاياها .

المبحث الثالث: لفظة (لمّا) بين الزمخشري وغيره من النحاة والمفسرين، ومدى تأثير الاعتزال وتدخله في آراء الزمخشري بِـ (لمّا).

من هنا، فإن هذا البحث يكون محاولة متواضعة لخدمة لغة الذكر الحكيم من خلال إنعام النظر في إحدى ألفاظه (لمّا) التي كان لها حضور في السياق القرآني، في ضوء تفسير(الكشّاف) الذي حاول فيه صاحبه أن يقف على نكات ولطائف إعجاز النظم القرآني مسخراً لذلك كل ما آتاه الله من علوم اللغة والتفسير، والحسّ المرهف والنظر الممحص الدقيق.

المبحث الأول: التعريف بالزمخشري وتفسيره الكشاف:

المطلب الأول: التعريف بالزمخشري:

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الملقب بجار الله[1] المولود في سنة (467هـ) والمتوفى بقرية زمخشر من قرى خوارزم في سنة (538هـ) أحد أبرز علماء القرن السادس في شتى العلوم تفسيرها وبلاغتها ونحوها وأدبها ولغتها، واسع العلم، كبير الفضل، متقناً، معتزليّ المذهب مجاهراً به[2].

وسيقتصر الباحث الحديث عن الزمخشري على براعة هذا الإمام في علمين عظيمين هما علم البلاغة وعلم النحو.

أولاً: الزمخشري بلاغياً:

يعد الزمخشري أحد حلقات سلسلة تاريخ البلاغة العربية الذي عمل على تحويل قواعدها من التنظير والتقعيد إلى التطبيق والإحياء، ليس على قصيدة أو سورة أو جزء من القرآن، بل على القرآن كله، مستفيداً مما وصل إليه العلماء الذين سبقوه من خلال تفسيره الكشاف الذي لا يعد تفسيراً للقرآن فحسب، بل صورة حية للبلاغة، وما وصلت إليه من سعي في استنباط إعجاز القرآن، والكشف عن حقائق وغوامض تنزيله وخفايا نظمه.

وكانت جهود الزمخشري البلاغية المتمثلة بكشافه عصارة جهود السابقين الذين تقدموه، وبذلك يكون الزمخشري خليفة عبدالقاهر الجرجاني الذي أرسى للبلاغة العربية نظرية النظم، فيطبق الزمخشري في تفسيره الكشاف مباحث عبدالقاهر في علمي المعاني والبيان تطبيقاً حياً خصباً مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات بارعة، سواء في المعاني الإضافية التي يصورها علم المعاني عند عبدالقاهر أو في البيان وما جاء به عبدالقاهر من قضاياه[3]

ومن الجدير بالذكر أن الزمخشري لم يدرس البلاغة العربية دراسة نظرية، ولم يكتب عنها كتابة مستقلة، إنما قرأ جهود البلاغيين الذين تقدموه، فراح بما عنده من علومها، وما تكون في شخصه من حس مرهف، وتذوق منقطع النظير لفنونها ينعم النظر، ويجيل الفكر في آي النظم العظيم محاولاً تبين مظاهر الإعجاز القرآني سورة سورة وآية آية موضحاً ما في أسلوب القرآن من روعة وتميز.

وليس أدل على اهتمام الزمخشري بالبلاغة، وعلم معانيها وبيانها مما جاء به من شروط يجب توافرها فيمن ينبري لتفسير القرآن، فمهما بلغ من الحفظ والوعظ، ومهما جمع من علوم

الفقه والنحو وغيره، فلا بد من أن يكون رجلاً " قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ [4].

ومع أنه لم يضع كتاباً خاصاً بالبلاغة، فإنه قد قام بالحديث عن معظم موضوعاتها في الكشاف حيث نجد الحديث عن علم المعاني وما يتعلق به من قضايا التقديم والتأخير والتعريف والتنكير وأسلوب حصر وقصر وفصل ووصل وحذف وإطناب وإضمار وإظهار، وفصّل الحديث كذلك عن علم البيان باثاً ذلك في كتابه الكشاف، وما جاء فيه من كلام حول المجاز والتشبيه والاستعارات والكنايات[5]، وفيه إشارات إلى علم البديع، وما فيه من سجع وطباق ومقابلة ومشاكلة ولفّ ونشر والتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم وغير ذلك إلا أنها كانت أقل حظاً من علمي البيان والمعاني[6].

وتتجلى ثقافة الزمخشري، ومعرفته بعلم المعاني في الحديث حول لفظة (لمّا) وما يعتريها من قضايا تخدم النص القرآني، إذ سنجده يستثمر العلم بمواضع معاني الكلام رابطاً بينه وبين التراكيب النحوية والإعرابية.

ثانياً: الزمخشري نحوياً:

ولمّا كان هذا البحث يقوم على دراسة كلمة (لمّا) في القرآن الكريم في ضوء تفسير الكشاف للزمخشري كان لا بد من الإحاطة كذلك بثقافته النحوية التي تعاضد ثقافته بمعاني الكلام وتراكيبه البلاغية.

فقد كان للزمخشري اهتمام عظيم بالنحو وقضاياه، فألف فيه كتابه المفصّل الذي يعد من أهم الكتب التي أصّلت للنحو العربي، ولا يخفى ذاك الجهد الذي قام به ابن يعيش في شرحه له .

ويلحظ أن هذه الثقافة النحوية العظيمة تسخر كلها لتفسير كتاب الله عز وجل من خلال تفسير الكشاف الذي أشار في مقدمته إلى أنه يجب أن يكون المفسر للقرآن " فارساً في علم الإعراب مقدماً في حملة الكتاب [7].

ويعد الزمخشري من علماء القرن السادس الذي استوت فيه علوم النحو وقواعده على عودها بما أحدثه البغداديون قبل الزمخشري وفي عصره من تشذيب للقواعد وترتيب، ولذلك فإن الدكتور شوقي ضيف يُسلك الزمخشري في قائمة البغداديين المتأخرين ناسباً إليه المذهب البغدادي فيقول: " وإذا أخذنا نتعقب آراءه وجدناه يمثل الطراز البغدادي الذي رأيناه عند أبي علي الفارسي وابن جنّي، فهو في جمهور آرائه يتفق ونحاة البصرة الذين نهجوا علم النحو ووطأوا الطريق إلى شعبه الكثيرة، ومن حين إلى حين يأخذ بآراء الكوفيين أو بآراء أبي علي أو ابن جنّي، وقد يتفرد بآراء خاصة به لم يسبقه أحد من النحاة إليها [8].

وسيعمد الباحث إلى محاولة الربط بين آرائه في (لمّا) ومدرسته النحوية، إلا أن من أبرز الصفات التي تميز الزمخشري ودراساته النحوية هو أنه لا يقيم الإعراب إلا على المعنى الذي يستسيغه سياق الكلام ودلالاته وهذا ما سنراه واضحا في الحديث حول لفظة (لمّا).

المطلب الثاني: التعريف بتفسير الكشاف وطريقة مؤلفه فيه:

تنوعت العلوم التي حواها الكشاف، فهو موسوعة في التفسير حافلة بموضوعات كثيرة في الاعتزال واللغة والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات، وما يتصل بها من تعليل وتمحيص.

ولقد كان له شهرة عظيمة منذ ألفه صاحبه، فتعددت أوجه الثناء عليه، والعناية به تمحيصاً ورداً أو تعليقاً وشرحاً واختصاراً .

إذن، فإنه باستطاعتنا أن نقر بأن منهج الزمخشري في الكشاف قائم على علوم اللغة، وربط بعضها ببعض، فهو يفسر الكلمات مفردة عند صعوبتها ويوضح معاني الآية وأحكامها، متكلماً في مسائل النزول، ثم جاعلاً علمي المعاني والبيان وعلم النحو المهيمنين على هذا كله بما تطرحه من تساؤلات إفتراضية بقوله في كثير من الأحيان " فإن قلتَ " ملمحاً إلى تساؤل أحدهم، ثم يجيب بما آتاه الله من قريحة عظيمة وعقل متوقد، وكان إلى جانب ذلك يبث عقائد المعتزلة التي تعمل على تأويل الآيات بما يتناسب مع معتقداتهم، فيكون الكشاف بذلك منجماً عظيماً لدراسة الفكر الاعتزالي وقضاياه، إلا أن الكشّاف أولاً وأخيراً محاولة متفردة في بدايتها تعمل على تبين إعجاز نظم الله لقرآنه الكريم، واستنباط إعجازه.

وقد تميز هذا المنهج عند الزمخشري بسمات مهمة من خلال اجتهاده وعدم تقليده وثقته العالية بنفسه وعلمه، مغلباً الكلام على ما تحمله الآية من أوجه، ثم السمة الأهم وهي النظر إلى علاقة النحو بالمعنى وبالبلاغة، حيث نظرية النظم إنما تقوم أصلاً على ملاحظة العلاقات والروابط النحوية التي توجد بين العبارات والتراكيب[9].

ففي تفسيره لقوله تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍعن والده شيئاً إن وعد الله حق) [10] يشير إلى أن النظم القرآني آثر استعمال الجملة الاسمية (ولا مولود هو جازٍ) وعطفها على الجملة

الفعلية التي قبلها، لما في الجملة الاسمية من معنى التأكيد الذي يتطلبه معنى الآية، فيقول: " (ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً) وارد على طريق من التوكيد، لأن الجملة الاسمية آكد من الفعلية، وقد انضم إلى ذلك قوله: (هو) وقوله: (مولود) والسبب في مجيئه على هذا السّنَن أن الخطاب للمؤمنين وعليتهم، فقد قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم.. فلذلك جيء به على الطريق الآكد [11].

هذا غيض من فيض اقتبس من كشاف الزمخشري، ليبرز مدى اهتمامه بالربط بين معاني القرآن ومقتضى أحوال الخطاب والمخاطبين فيه ومدى تماسه مع النحو، لنكون بذلك قد عرفنا شيئاً يسيراً عن الزمخشري وكشافه، وستعرض (لمّا) في الذكر الحكيم من خلاله.

1- المبحث الثاني: لمّا في تفسير الكشاف:

تنوع استخدام لفظة (لمّا)، وتغايرت الوظائف والمعاني التي تؤديها، لذا قام النحاة بتقسيمها بحسب معانيها إلى ثلاثة أقسام وهي (لمّا) الحينيّة أو الظرفية أولاً، و(لمّا) الجازمة ثانياً، ثم (لمّا) الاستثنائية ثالثاً، وقد جاءت لفظة (لمّا) . بفتح اللام وتشديد الميم . بأنواعها الثلاثة في القرآن الكريم مع الاختلاف الواضح في نسبة هذا الاستعمال كثرةً وقلةً، وسنتحدث عن (لمّا)، وما جاء حولها في تفسير الكشاف من خلال تقسيمها إلى هذه الأنواع الثلاثة مع تناول مفصّل لقضاياها، وما دار حولها وفيما يلي بيان ذلك.

المطلب الأول: لمّا الحينيّة:

هذا النوع هو الذي عبر عنه سيبويه بقوله: " فهي للأمر الذي وقع لوقوع غيره [12] وهي تختص بالماضي فتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما، نحو (لمّا جائني أكرمته)، ويكون جوابها فعلاً ماضياً أو جملة اسمية مقرونة بإذا الفجائية[13] كقولنا (خرجت فإذا زيدٌ بالباب) ولا يخفى ما تحمله هذه اللفظة من دلالة الشرط بالإضافة إلى معنى (حين)، لذلك تسمى الشرطية أو الحينية أو (لمّا) التوقيتية[14].

ومما تجدر الإشارة إليه أن النحاة قد انقسموا إلى قسمين في (لمّا) هذه، فمنهم من عدها حرفاً، ومنهم من عدها اسماً يكون منصوباً على الظرفية، وإذا ما حاولنا تلمس رأي الزمخشري في هذا الموضوع من خلال كتابه المفصّل، لم نجد له إلا قوله في باب الظروف: " ولمّا في قولك لمّا جئت بمعنى حين [15]، حيث يجعلنا هذا النص نطمئن إلى رأي الزمخشري بهذا الموضوع، وكيف أنه يرى أنها اسم منصوب على الظرفية، ولكننا لا نجد أي تفصيل حول (لمّا) وظرفيتها، وما يقتضيه عدها مع الأسماء، ومن هنا تأتي أهمية السعي وراء دراسة (لمّا) في كشاف الزمخشري، حيث نستطيع أن نجد إشارات كثيرة تعطينا صورة واضحة عن آرائه وتجلياته حولها، وذلك من خلال:

أولاً: إعرابه لها بأنها ظرف منصوب:

يخالف بذلك من ذهب إلى أنها حرف لا محل له من الإعراب، وهي مسألة غاية في الأهمية من خلال أن عدها مع الأسماء يقتضي لها شروطاً لا تتوافر عند من عدها حرفاً، فنحن نجد الزمخشري يقول عند تفسيره لقوله تعالى: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات)[16] يقول الزمخشري: " (لمّا) ظرف لأهلكنا [17]، ويقول معقباً على قوله تعالى: (أَوَ لمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم)[18]: (أصابتكم مصيبة) يريد ما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم (قد أصبتم مثليها) يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين، و(لمّا) نُصِبَ بقلتم (أصابتكم) في محل جر بإضافة (لمّا) إليه، تقديره أقلتم حين أصابتكم . والهمزة للتقرير والتقريع [19].

وعند تفسيره لقوله تعالى: (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لمّا جاء أمر ربك وما زادهم غير تتبيب)[20] يقول: " لمّا منصوب بما أغنت [21].

ففي هذه الآيات الثلاث، نجد الزمخشري أولاً يصرح بأن (لمّا) ظرف، ثم نجده في الآية الثانية يذكر أن (لمّا نُصِبَ بقلتم) . أي ظرف نُصِبَ بقلتم . فأشار هنا إلى تسلط العامل على الظروف، فلا بد من عامل ينصبها، وثالثاً أشار إلى مسألة الإضافة التي تترتب على جعل (لمّا) اسماً منصوباً على الظرفية، وهو وجوب إضافة الفعل بعده إليه، حتى يكون اسماً له محل من الإعراب . ولا يخفى ما في معنى الظرف من استيعاب للحدث وإحاطة به، واشتمال على الزمن أكثر من الحرف الذي يكون مجرد أداة ربط لا محل لها من الإعراب.

ثانياً: تركيب جملة لمّا، وقضاياها:

تختلف (لمّا) الحينية أو الظرفية عن (لمّا) الجازمة بأن الأولى لا يليها إلا فعل ماضٍ معنىً أو لفظاً، وتلك يليها مضارع تقلبه إلى الماضي، و(لمّا) الحينية تحتاج إلى جواب يترتب وقوعه على وقوع الفعل الأول . ولقد تنوع استخدام القرآن الكريم لهذا التركيب، فتارةً يجيء الجواب متقدماً فيضطر النحاة إلى تقدير جواب محذوف، وتارةً يأتي متصلاً بإذا

الفجائية المقرونة بالفاء كما أشرنا، وتارةً يأتي منتظماً مكوناً من (لمّا) ثم فعلها ثم جوابها وأحياناً تأتي مقرونة بحروف التعقيب أو مجردة منها، بسبب ذلك كله ومن خلال تتبعي للفظة (لمّا) في القرآن، وإشارات الزمخشري حولها وجدت أن إشاراته تنوعت واختلفت، بحيث يمكن الحديث حول هذا التركيب من خلال الحديث عن جواب (لمّا) من حيث إثباته وحذفه، فلقد راوح القرآن الكريم بين ذكر جواب (لمّا) وحذفه، وقد لوحظ أن الزمخشري كان يعمد في بعض الأحيان إلى الكلام على هذا الجواب، وما يعتريه من قضايا في الآيات التي تتطلب ذلك والتي يكون فيها شيء من الغموض أو اللطائف التي يجدر الإشارة إليها، كما نجده في أحيان كثيرة لا يلتفت إلى الحديث حول (لمّا) مطلقاً تاركاً السياق يتحدث عن نفسه، ولقد كان النحاة يعمدون إلى تقدير جواب محذوف لِـ (لمّا) في حالة أن يتقدم هذا الجواب عليها غير أن الباحث يلحظ أن الزمخشري كان لا يلتفت إلى هذا الحذف أو تقديره، مقللاً بذلك من شأن قاعدة النحاة التي تقول بأن (لمّا) ومثيلاتها من الألفاظ التي يُمنع تقدم جوابها عليها فتقدره[22] .وفيما يلي قضايا الجواب حذفه ووجوده وآراء الزمخشري في ذلك.

أ- جواب لمّا بين الحذف والإثبات:

لا يتوقف الزمخشري في السؤال عن جواب (لمّا) إلا في المواطن التي تحتاج إلى ذلك، فعند تفسيره لقوله تعالى: (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون)[23] يقول الزمخشري: " فإن قلت أين جواب لمّا ؟ قلت فيه وجهان: أحدهما أن جوابه (ذهب الله بنورهم) . والثاني: أنه محذوف كما حذف في قوله تعالى: (فلمّا ذهبوا به)[24] وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدال عليه، وكان الحذف أولى من الإثبات، لما فيه من الوجازة، مع الإعراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى، كأنه قيل: فلمّا أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد الكدح في إحياء النار[25].

فالزمخشري هنا يتوقف متأملاً النص القرآني مراوحاً بين الإثبات والحذف لجواب (لمّا)، إلا أنه يقدم الحذف، لما فيه من الوجازة، والتعبير عن صفة المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ تاركاً للقارئ تقدير حاله بعد تأمل مصيره.

ثم يتابع الزمخشري مفترضاً أنه سيُسأل عن موضع (ذهب الله بنورهم) بماذا ستتعلق أو ما مكانها من الإعراب إن قدر الجواب محذوفاً، يقول: " فإن قلت: فإذا قدر الجواب محذوفاً فبم يتعلق (ذهب الله بنورهم) قلت: يكون كلاماً مستأنفاً . كأنهم لمّا شبهت حالهم بحال المستوقد الذي طفأت ناره، اعترض سائل فقال: ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد ؟ فقيل له: ذهب الله بنورهم [26].

فالزمخشري هنا، لم يكتف بتبيين لطائف الحذف بل كذلك حالُ الجمل إذا قدر لِـ (لمّا) جواباً محذوفاً، فيذهب إلى أن قوله (ذهب الله بنورهم) كلام مستأنف لمتسائل كان هذا جوابه، فأدى هذا معانيَ بلاغية عظيمة تجعل القرآن غاية في الإعجاز.

ب- تقدير جواب (لما):

لم يتوقف الزمخشري عند كل آية تقدم جواب (لمّا) فيها على (لمّا) ليقدر جواباً كما يفعل النحاة الذين يقدرون جواباً لأن (لمّا) لا يجوز أن يتقدم جوابها عليها، لأنها من أدوات التعليق، ولا يجوز تقديم الجواب على أي أداة من أدوات التعليق، وهو على ذلك يرى هذا التقدير شكلياً، ولا يسعى إلى تقدير الجواب إلا في المواطن التي يُخدم بها النص القرآني، ويتضح ذلك عند حديثه عن قوله تعالى: (فلمّا أسلما وتلّه للجبين*وناديناه أن يا إبراهيم*قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين)[27]، يقول الزمخشري: فإن قلت: أين جواب لمّا ؟ قلت: هو محذوف تقديره فلمّا أسلما وتله للجبين (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب [28].

فقد أدى الحذف هنا إلى إشعال قريحة السامع، واستنهاض فكره إلى التفكر بحال إبراهيم وابنه إسماعيل، فما الذي سيقولانه إذا أنجاهما الله من هذا الامتحان الصعب ؟ فالسؤال عن جواب (لمّا) هو سؤال نحوي مهتم بالتراكيب والقواعد النحوية التي تقتضي جواباً لِـ (لمّا)، والإجابة كانت بحذفه مقدرةً من عالم بالمعاني ومواطن جمالياتها .

وقد كان أكثر المواطن التي ثبت بها حذف الجواب عند الزمخشري هو قوله تعالى في سورة يوسف: (فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) [29] يقول: " وجواب لمّا محذوف . ومعناه: فعلوا به ما فعلوا من الأذى، فقد روي أنهم لمّا برزوا إلى البريّة أظهروا له العداوة ..."[30] فالزمخشري اذا أراد أن يستشهد على حذف جواب (لمّا) يأتي بهذه الآية شاهداً على الحذف كما مرّ بنا قبل قليل عند حديثه عن قوله تعالى: (فلمّا

أضاءت ماحوله).

وقد أشار الزمخشري إلى حذف الجواب، وعمل على تقديره عند قوله تعالى: (ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) [31] إذ يقول: " جواب (لمّا) محذوف وهو نحو " كذبوا به " و" استهانوا به " وما أشبه ذلك "[32]، فهو يفتح المجال للسامع أن يتخيل حال هؤلاء الكفار المكذبين وردهم واستهانتهم بكتاب الله (التوراة)، فعدم التصريح بهذا الجواب أبلغ من ذكره فنستطيع أن نلاحظ مما تقدم أن هذه المواضع التي قدر فيها جواباً لِـ (لمّا) هي بالفعل بحاجة إلى تقدير جواب محذوف إذ لا يستقيم السياق إلا بتقديره.

ج- تقدير جواب محذوف أولى من مجيئه مضارعاً:

يقول الله تعالى: (فلمّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) [33] ذهب النحاة إلى أن جواب (لمّا) في هذا الموضع هو الفعل المضارع (يجادلنا)[34] إلا أن الزمخشري يرى أن تقدير الحذف مقدم على أن يكون جوابها فعلاً مضارعاً لكنه لا يرفضه بل يجعل له تخريجاً، وهذا ما يفهم من قوله: " (الروع) ما أوجس من الخيفة . حين نكر أضيافه. والمعنى: أنه لمّا اطمأن قلبه بعد الخوف وامتلأ سروراً بسبب البشرى بدل الغمّ، فرغ للمجادلة، فإن قلت: أين جواب لمّا ؟ قلت: هو محذوف كما حذف قوله (فلمّآ ذهبوا به وأجمعوا)[35] [36]، وقوله (يجادلنا) كلام مستأنف دال على الجواب . وتقديره اجترأ على خطابنا، أو فطن لمجادلتنا، أو قال: كيت وكيت، ثم ابتدأ فقال (يجادلنا في قوم لوط)، وقيل في (يجادلنا): هو جواب لمّا، وإنما جيء به مضارعاً لحكاية الحال، وقيل: إن (لمّا) ترد المضارع إلى معنى الماضي كما ترد (إن) الماضي إلى معنى الإستقبال، وقيل: معناه أخذ يجادلنا، وأقبل يجادلنا [37].

فنحن نراه كيف يقدر الجواب محذوفاً، وكأني بالزمخشري قرأ الآية في ذهنه (فلمّا ذهب عن إبراهيم الروع يجادلنا)، فساقه حسه المرهف وعقله الراجح إلى ضرورة تقدير فعل ماضٍ، فقدر حدثاً آخر هو الاطمئنان إذ بعده تجيء المجادلة، والدفاع عن قوم لوط سارداً الأراء الأخرى إلا أنه في نهاية المطاف يقدر فعلاً ماضياً هو أقبل، حينما أشار بقوله: وقيل: أقبل يجادلنا . ولكن يبقى الحذف عنده هو المقدم. وهذا هو ما يجعل لهذه الملاحظات قيمتها، إذ ليس حاجة النحاة إلى إقامة التراكيب النحوية وشروطها من فعل وجواب فقط، بل لا زال علماؤنا القدماء . رحمهم الله . يصرون على المعنى الذي يجب أن تتوافق فيه التراكيب النحوية وسياق الحال كما يتضح لنا من إشارات الزمخشري السابقة.

ثالثاً: اتصال لمّا بفاء التعقيب ووظيفة تتابعها:

من خلال استعراض آيات الذكر الحكيم التي وردت فيها لفظة (فلمّا) نلاحظ بوضوح أنها دائماً تجيء في سياق القصص القرآني الذي يتحدث عن أنبياء الله، وما جرى معهم، حيث لم أقف على آية فيها لفظة (فلمّا) إلا كانت في سياق القصص وضرب المثل، وتكون في كثير من الأحيان متتابعة تذكر أكثر من مرة، وهذا كثير في القرآن الكريم، ومثاله ما جاء في الحديث عن خلق آدم وزوجه من نفس واحدة، قال تعالى: (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلمّا تغشّاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلمّا أثقلت دعوَا الله ربهما لئن ءاتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين*فلمّا ءاتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما ءاتاهما فتعالى الله عمّا يشركون) [38].

ومثاله كذلك قوله تعالى: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من المؤمنين*فلمّا جنَّ عليه الليل رءا كوكباً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لا أحب الآفلين* فلمّا رءا القمر بازغاً قال هذا ربي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين* فلمّا رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلمّا أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون)[39] .

فالقارئ لهذه الآيات يتساءل عن سرِّ مجيء (لمّا) مقرونة بالفاء، وعن سرِّ تكريرها أكثر من مرة في الآية أو الآيات فنجد الزمخشري الذي جمع علوم النحو ودقائقها، وعلوم المعاني وتجلياتها يلمح إلى فائدة هذه الفاء من جهة، وإلى تكرار (لمّا) من جهة أخرى، فعند تفسيره لقوله تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وءاثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون*فلمّا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون*فلمّا رأوا بأسنا قالوا ءامنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين*فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) [40]، يقول الزمخشري: " فإن قلت: كيف ترادفت هذه الفاءات ؟ قلت: أما قوله تعالى (فما أغنى عنهم) فهو نتيجة قوله (كانوا أكثر منهم) وأما قوله (فلمّا جاءتهم رسلهم بالبينات) فجارٍ مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى (فما أغنى عنهم) كقولك: رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء. وقوله (فلمّا رأوا بأسنا) تابع لقوله (فلمّا جاءتهم) كأنه قال: فكفروا فلمّا رأوا بأسنا آمنوا وكذلك (فلم يك ينفعهم

إيمانهم) تابع لإيمانهم لمّا رأوا بأس الله [41].

من هنا، نستطيع تلمس ما تؤديه هذه اللفظة من ربط للنتائج بمسبباتها، وتسلسل الأحداث لتكون أكثر منطقية ومطابقة لأحداثها سواء في هذه الآيات، أو الآيات السابقة لها.

رابعاً: في دلالة (لمّا) الحينية:

ولتأكيد على هدف هذا البحث من ربط للتراكيب النحوية مع معانيها، وتعاضد هذا كله مع السياق القرآني وشدة أثر الزمخشري في هذا المجال، فإنه لا بد من الإشارة إلى ما جاء عند الزمخشري من إشارات حول معنى المفاجأة والمباشرة في هذه اللفظة، حيث يقول في تفسيره لقوله تعالى: (وإذا تتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لمّا جاءهم هذا سحر مبين) [42]: " لمّا جاءهم أي: بادهوه بالجحود ساعة أتاهم وأول ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر، ومن عنادهم وظلمهم: أنهم سمّوه سحراً مبيناً ظاهراً أمره في البطلان لا شبهة فيه "[43].

ويقول عند قوله تعالى: (بل كذبوا بالحق لمّا جاءهم فهم في أمر مريج) [44]: " (بل كذبوا) إضراب أتبع الإضراب الأول[45] للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر "[46].

وإذا أنعمنا النظر في هذه المعاني التي جاء بها الزمخشري في عباراته (بادهوه بالجحود ساعة أتاهم)، (أول ما سمعوه) وقوله (في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر) لرأينا أن هذه العبارات قد انساقت كلها بسبب كلمة عبرت عنها جميعاً وهي (لمّا) في السياقين الماضيين.

ولتأكيد ما سبق، على هذا فإنه من الجدير بالذكر أن نسوق كلام الزمخشري حينما قال في تفسيره لقوله تعالى: (فلمّا كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون) [47]: " إذا هم ينكثون جواب لمّا، يعني: فلمّا كشفناه عنهم فاجؤوا النكث وبادروا لم يؤخروه ولكن كما كشف عنهم نكثوا (فانتقمنا منهم) [48].

لقد كان جواب (لمّا) هنا جملة اسمية مقترنة بإذا الفجائية، فكان في سياق الآية ما فيه من المفاجأة بالنكث الذي أشار إليه الزمخشري. ومن هنا، فإن في دلالة (لمّا) كذلك وحدها معنى المفاجأة والمباشرة، فقد أدت في الآيتين الماضيتين هذا المعنى دون اقترانٍ بإذا الفجائية، ومعنى المفاجأة الذي أفادته (لمّا) في الآيات الكريمة يؤكد أن الكفار لم يكفروا بالحق الذي جاءت به الرسل لنقص في البيان والبرهان بل لأنهم لم يفسحوا لعقولهم مجالاً للتفكر فيه، فهم لا يصدرون في تصرفاتهم عن عقل وهدىً، لذى تخبطوا في ظلمات الجهل والتيه.

المطلب الثاني: لمّا الجازمة:

(لمّا) الجازمة هي النوع الثاني التي أود أن أظهر دقة نظر الزمخشري ومحاورته حولها، ونحن ننتقل من الحديث عن (لمّا) الظرفية وهي اسم عند الزمخشري إلى الحديث عن (لمّا) الجازمة التي اتفق النحاة على أنها أداة للنفي تختص بالمضارع بعكس (لمّا) الظرفية التي تختص بالماضي.

وسيظهر لنا من خلال عرضنا لآراء الزمخشري أنه كان أول من أشار إلى فرق واضح بين (لم) الجازمة و(لمّا) الجازمة إذ يضيف الزمخشري إلى هذه الفروق التي ذكرها النحاة فرقاً آخر لم يُسبق إليه، وهو أن (لمّا) يُتوقع حصول منفيها بينما (لم) لا يُتوقع حصول منفيها، وهذا ما سيظهر لنا من خلال عرض أقوال الزمخشري وآرائه.

ولقد أشار النحاة إلى أن (لم ولمّا) يشتركان في الحرفية والنفي والجزم والقلب للمضي، وتتفرد (لم) بمصاحبة الشرط وبجواز انقطاع نفي منفيها، وعدم استمراره إلى وقت الكلام، فتقول (لم يكن ثم كان)، ولا تقول (لمّا يكن ثم كان)، وتنفرد (لمّا) بجواز حذف مجزومها كـ (قاربت المدينة ولمّا) أي قاربت المدينة ولمّا أدخلها[49]. ثم يأتي الفرق الأخير الذي كان أول من أشار إليه هو الزمخشري في كشافه، فعند تفسيره لقوله تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) [50] يقول: " ولمّا فيها معنى التوقع وهي في النفي نظيرة (قد) في الإثبات والمعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر "[51].

وهذا هو جوهر الاختلاف بين (لمّا) و(لم) في السياق القرآني عند الزمخشري إذ (لم) في سياق الحديث لا نأتي بها ونحن نتوقع حصول منفيها بينما (لمّا) يُتوقع حصول منفيها، فتقول مثلاً: (لمّا اذهب إلى الحجّ بعدُ) حيث إنني أتوقع ذلك.

وقد لوحظ أن الزمخشري كان في تفسيره للآيات التي وردت فيها (لمّا) الجازمة . نجده دائماً . يصّر على هذا الفرق أو الميزة التي امتازت بها (لمّا) من حيث أنه يُتوقع حصول منفيها، ومثاله الآية التي جمعت بين (لم ولمّا)، قال تعالى: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم)[52]، فقد ألمح الزمخشري إلى مجيء (لمّا) بعد (لم) في الآية الكريمة فهو يقول . بعد أن يفرق بين الإيمان والإسلام ويشير إلى طريقة القرآن في التأدب مع العرب وعدم وصفه إياهم بالكذب . ما نصه: " فإن قلت: قوله (ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم) بعد قوله (قل لم تؤمنوا) يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة قلت: ليس كذلك، فإن فائدة قوله (لم تؤمنوا) هو تكذيب دعواهم وقوله (ولمّا يدخل الإيمان في

قلوبكم)

توقيت لما أمروا به أن يقولوه كأنه قيل لهم (ولكن قولوا أسلمنا) حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في (قولوا) وما في (لمّا) من معنى التوقع: دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد"[53].

فكلمة (لمّا) التي وصفها الزمخشري (بالتوقع) استدركت أن إيمان هؤلاء الأعراب متوقع الحدوث في المستقبل، ليكون هذا النظم القرآني متوافقاً وواقع الحال الذي آلت إليه جزيرة العرب وانتشار الإسلام فيها.

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله) [54] فإننا سنجد الزمخشري يجيب عن معنى التوقع من جهة، ويعطي لِـ (لمّا) الجازمة اسماً جديداً لم نعهده عند النحاة أو المفسرين قبله حيث يقول: " فإن قلت: ما معنى التوقع في قوله (ولمّا يأتهم تأويله) ؟ قلت: معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل، تقليداً للآباء وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به وجاء بكلمة (التوقع) ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه "[55].

فقد غدت (لمّا) الجازمة كلمة (توقع) في نظر الزمخشري وهذا الفرق عنده هو المعوَّل عليه في استخدامها في مواطن لا يصلح أن يستخدم فيها (لم) أو غيرها، حيث إن كل كلمة في القرآن الكريم تجيء في مكانها لا تسد مسدها أي كلمة أخرى.

ورحم الله ابن هشام الذي أشار إلى هذا المعنى في (لمّا) معطياً الزمخشري حقه في الوصول إليه، يقول وهو يعدد فروق (لمّا ولم) بعد أن ذكر الفرق الأول: " والثاني: أن (لمّا) تؤذن كثيراً بتوقع ثبوت ما بعدها، نحو (بل لمّا يذوقوا عذاب) [56] أي: إلى الآن لم يذوقوه وسوف يذوقونه، و(لم) لا تقتضي ذلك، ذكر هذا المعنى الزمخشري، والاستعمال والذوق يشهدان به "[57].

المطلب الثالث: لمّا الاستثنائية:

(لمّا) الاستثنائية هي النوع الثاني من أنواع (لمّا) التي اتفق العلماء على أنها حرف، فالأول هو (لمّا) الجازمة والثاني هو (لمّا) الاستثنائية التي هي موضع الحديث الآن، أما الحينية فقد اختلفوا فيها بين الحرفية والاسمية، حيث نجد أن الزمخشري يعدها إسماً منصوباً على الظرفية.

أما (لمّا) الاستثنائية، فهي التي تكون بمعنى (إلا) كقولك (إن ضربك لمّا زيدٌ) أي: إلا زيدٌ، فإن الشرط فيها أن تشدد الميم من (لمّا)، وإن خففت الميم فللآيات إعراب آخر يطول ذكره[58].

وقد ردّ النحاة (لمّا) إلى معنى (إلا) الاستثنائية في أربعة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

أ- قوله تعالى: (وإنَّ كلاً لمّا ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير) [59].

ب- قوله تعالى: (وإن كلٌ لمّا جميع لدينا محضرون) [60].

ج- قوله تعالى: (وزخرفاً وإن كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) [61].

د- قوله تعالى: (إن كل نفس لمّا عليها حافظ) [62].

وقد كانت هذه الآيات وخاصة الأولى منها موضع نقاش طويل بين العلماء والنحاة والمفسرين، حيث فاجأهم هذا التركيب، فكثر الخلاف حوله، وتعددت محاولات إعراب هذه الآيات [63]، وكان من بين العلماء الذين كان لهم موقف من هذا التركيب الزمخشري الذي لا بد من الوقوف على رأيه في مثل هذه المسائل.

ونجده يقول عن قوله تعالى: (وإنَّ كلاً لمّا ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير): "(وإنَّ كلاً) التنوين عوض من المضاف إليه، يعني: وإنَّ كلهم، وإن جميع المختلفين فيه (ليوفينهم) جواب قسم محذوف، واللام في (لمّا) موطئة للقسم و(ما) مزيدة والمعنى وإنّ جميعهم والله ليوفينهم (ربك أعمالهم) من حسنٍ وقبيحٍ وإيمان وجحود، وقريء: (وإن كلاً) بالتخفيف على إعمال المخففة عمل الثقيلة، اعتباراً لأصلها الذي هو التثقيل. وقرأ أُبي: وإن كلٌ لمّا ليوفينهم، على أنَّ إن نافية، ولمّا بمعنى إلا، وقراءة عبد الله مفسرة لها، (وإن كلٌ إلا ليوفينهم) وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم: وإن كلاً لمّاً ليوفينهم بالتنوين، كقوله (اكلاً لمّا) والمعنى: وإن كلاً ملمومين، بمعنى مجموعين، كأنه قيل وإن كلاً جميعاً، كقوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون)"[64].

فالزمخشري في هذه الآية التي جاءت (إنَّ) فيها مشددة يخرجها عن معنى (إلا)، لتكون مركبة من اللام الموطئة للقسم و(ما) المزيدة "، وقد يقلل السبب في مجيء (ما) أنها للفصل بين اللام التي في خبر (إنَّ)، ولام القسم التي في ليوفينهم، لأن كليهما مفتوحة "[65]، وقد قدم الزمخشري هذا الرأي مستعيناً بالمعنى الذي يكون عليه تخريج الآية ومؤداه (وإنّ جميعهم والله ليوفينهم ربك أعمالهم). وكذلك الحال إن خففت إن ونصبت (كلاً) فتعمل وهي مخففة.

هذا تخريج الزمخشري للقراءة المشهورة بتشديد النون إذ لم يقرأها ساكنة (إن) إلا الحرميان (وهما نافع وابن كثير) وأبو بكر[66]. لذلك هو يخرجها عن معنى (إلا) إذ إن هذا الوجه يحتاج إلى أن تكون (إن) مخففة أولاً . ثم نافية لا تعمل، وهذا ما أشار إليه عند قوله (وقرأ أُبي: وإن كلٌ لمّا ليوفينهم) فهنا

تكون (إلا) بمعنى (لمّا) التي حلّت محلها، فيصبح المعنى (وإن كلٌ إلا ليوفينهم) حيث تشديد النون في (إنّ) لم يكن في الآيات السابقة إلا في هذه الآية، وهذا ما جعل النحاة والمفسرين يكثرون من القول حول هذه الآية. إلا أنه ويلحظ أن الزمخشري لم يقم برد أي من القراءات السابقة التي ذكرها في هذه الآية، بل ذكر الوجه المقدم عنده، ثم أخذ يستعرض القراءات الأخرى مبيناً ومعطياً أوجه التخريج لها، دون أن يجعل من القضية قضية معقدة لا يمكن الوصول فيها إلى رأي واضح صريح.

غير أنه لا يخفى ما في هذا الوجه الذي قدمه الزمخشري من قوة في النظم من خلال تعدد أساليب التأكيد فيه التي جاءت متعاقبة من خلال إنَّ المؤكدة ولفظة كل التي حذف ما أضيفت إليه، وعوِّض بدلاً منه تنوين العِوَض، ثم اللام الموطئة للقسم، وما فيها من تأكيد وكذلك القسم المؤكد، ونون التوكيد التي اتصلت بجواب القسم، حيث الآية في معرض خطاب لأمة كافرة لا زالت تحتاج إلى تعدد أساليب التوكيد في العبارة ليوافق ذلك مقتضى حالها.

ونجده يقول حول قوله تعالى في سورة (يس): (وإن كلٌ لمّا جميع لدينا محضرون) [67]: " وقريء: لما، بالتخفيف، على أن (ما) صلة للتأكيد وإن: مخففة من الثقيلة. وهي متلقاة باللام لا محالة. ولمّا بالتشديد بمعنى إلا، كالتي في مسألة الكتاب (نشدتك بالله لمّا فعلت) وإن نافية والتنوين في (كلٌ) هو الذي يقع عوضاً من المضاف إليه، كقولك: مررت بكل قائماً. والمعنى أن كلهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة"[68].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن (لمّا) قد جاءت بتشديد الميم عند عاصم وابن عامر وحمزة وعند البقية بتخفيفها[69]، فكلاهما من القراءات السبع المتواترة، لذلك نجد الزمخشري يذكر ما في هذه الآية من قراءة أخرى، فيخرجها على معنى (وإن كلٌ للذي جميع لدينا محضرون) لتكون مركبة من (ما) الموصولية المتصلة أو المتلقاة على حد تعبيره باللام. فيجب أن تكون مشددة الميم في (لمّا) ومخففة في (إن) لتكون نافية فيتم بذلك أسلوب الإستثناء الذي يفيد الحصر كقولنا (إن الرجل إلا زيدٌ) مشيراً كذلك إلى معنى (إلا) التي تؤدي معناها (لمّا) في حالة القسم كقولنا: (نشدتك الله لمّا فعلت) أي: إلا فعلت.

ونجده لا يبتعد عن هذا الرأي في الآيتين الأخريين، حيث يرى في قوله تعالى: (وإن كلُ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا): أن " اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية وقريء بكسر اللام أي: للذي هو متاع الحياة. كقوله تعالى (مثلاً ما بعوضة) ولمّا بالتشديد بمعنى إلا وإن نافية وقريء إلا. وقريء: وما كل ذلك إلا "[70].

فنحن نراه ينظر لِـ (لمّا) على أساس أن هناك قراءتين متواترتين بتشديد الميم وتخفيفها فيجعلها بمعنى (إلا) في حالة تشديد الميم ويجعلها مركبة في حالة تخفيف الميم، وقد أشار ابن الجزري إلى تواتر هاتين القراءتين، إذ ذكرهما في كتابه الذي خصصه للقراء العشرة المتواترة قراءتهم إذ " عاصم وحمزة " وهما من القراء العشرة" وابن الجمّاز وهشام بخلاف عنه (لمّا متاع) بتشديد الميم من (لمّا) والباقون بتخفيفها "[71]. ثم يسرد لنا الزمخشري القراءات التي تدعّم مجيء (لمّا) مشددة بمعنى (إلا) لأن هناك من قرأ (وما كل ذلك إلا) إلا أنها قراءة شاذة لم تذكر في القراءات العشر فذكرها دون تعليق عليها.

ويتضح لنا موقف الزمخشري من (لمّا) وقراءتيها المتواترتين ومعنى كل منهما بيناً واضحاً عند تعليقه على قوله تعالى: (إن كل نفس لمّا عليها حافظ) إذ يقول: " فإن قلت: ما جواب القسم ؟ قلت: (إن كل نفس لمّا عليها حافظ) لأن (إن) لا تخلو فيمن قرأ لمّا مشددة [72]، بمعنى: (إلا) أن تكون نافية . وفيمن قرأها مخففة على أن (ما) صلة، تكون مخففة من الثقيلة. وأيتهما كانت فهي مما يتلقى به القسم "[73].

ويتخذ موقفاً واضحاً من (لمّا) ومعنى الاستثناء فيها فيجب أن تكون مشددة و(إن) التي تسبقها في هذه الآيات نافية ليتم عنده أسلوب الاستثناء الذي يفيد الحصر.

المبحث الثالث: لمّا بين الزمخشري وغيره من النحاة والمفسرين:

وبعد هذا الاستعراض لآراء الزمخشري حول لفظة (لمّا) وأنواعها في القرآن الكريم في ضوء تفسيره الكشاف، فإنه يَحسُن بنا أن نرى مدى توافقه مع النحاة والمفسرين قبله من جهة ومدى تأثيره على من بعده من جهة أخرى.

ومن المهم هنا أن أشير إلى أنني من خلال تتبعي لما جاء عند الزمخشري من آراء في (لمّا) في ضوء كشافه لم أجد أي علاقة بين هذه الآراء ومذهبه الإعتزالي، إذ كان الكثير مما جاء في الكشاف محلاً للنقاش والنقد والرد بسبب تعلقها بعقيدة الزمخشري ومذهبه الاعتزالي كمسألة تأبيد نفي (لن) مثلاً وما دار حولها. من هنا، فإن ما جاء من كلام حول (لمّا) في الكشاف كان نابعاً من وجهة نظر تتعلق بعلومه اللغوية والنحوية فحسب دون أن يخضعها لمذهبه الاعتزالي وما فيه، من تأويلات تخالف أهل السنة والجماعة، مما يجعل لهذه الآراء قوة وثباتاً.

لقد أشرت آنفاً إلى رأي الزمخشري في (لمّا) الحينية وذهابه إلى أنها اسم منصوب على الظرفية فتحتاج إلى جملة تضاف إليها وعامل ينصبها، وهو بذلك يخالف سيبويه إمام المدرسة

البصرية حيث جاء في كتاب سيبويه " وأما (لمّا)، فهي للأمر الذي قد وقع لوقوع غيره، وإنما تجيء بمنزلة (لو) لِما ذكرنا، فإنما هما لابتداء وجواب "[74] فرأي سيبويه هذا يشير إلى أنها ليست من الظروف، وإنما حرف مثل حرف (لو) في قولنا (لو درست لنجحت) حيث يقع الثاني لوقوع الأول وينتفي بانتفائه. كما هو الحال في (لمّا) حين تقول: (لمّا زرتني أكرمتك) إذ يقع الثاني لوقوع الأول.

فالزمخشري بذلك يكون قد أخذ برأي أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جنّي اللذين تابعا " ابن السراج في أن لمّا ظرف "[75]، ومن خلال ذلك نستطيع التأكيد على أن الزمخشري يُسلك في المدرسة البغدادية التي يتزعمها أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جنّي، فمع أن المدرسة البغدادية كانت موافقة للمدرسة البصرية إلا أن لها قضايا تفردت بها[76] عن المدرسة البصرية .

أما أبو حيان الأندلسي الذي أخذ على عاتقه تتبع الزمخشري فنجده ينتصر لسيبويه . كما هي عادته . حيث يقول حول قوله تعالى: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا) [77]: " ولفظة (لمّا) مشعرة بالعليّة وهي حرف تعليق في الماضي ومن ذهب إلى أنها ظرف معمول (لأهلكنا) كالزمخشري ... فإنما يدل إذ ذاك على وقوع الفعل في حين الظلم، فلا يكون لها إشعار إذ ذاك بالعليّة "[78]، فأبو حيان يرد قول الزمخشري بما يوجد في (لمّا) من معنى العليّة والسببية، والظرف لا دلالة فيه على العليّة عنده.

ويلحظ أن أبا حيان لم يكن يهمل هذا الرأي الذي يقول إنها ظرف حيث يذكره ويذكر العامل في نصب (لمّا) على الظرفية إذ يقول في تفسيره لقوله تعالى: (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر){القلم: 52}: " من يقول (لمّا) ظرف يكون العامل فيه (ليزلقونك) "[79].

وفي تفسيره لقوله تعالى: (وقوم نوح لمّا كذبوا الرسل أغرقناهم) [80] يقول: " وانتصب (وقومَ نوحٍ) على الاشتغال وكان النصب أرجح لتقدم الجمل الفعلية قبل ذلك، ويكون (لمّا) في هذا الإعراب ظرفاً، وأما إن كان حرف وجوب لوجوب فالظاهر أن (أغرقناهم) جواب (لمّا) فلا يفسر ناصباً "[81]، فهو هنا يقدم الظرفية مع أنه يصرح بأن مذهب سيبويه هو الصحيح.

ويوافق ابن يعيش الزمخشري في هذه المسألة في شرحه لمفصّل الزمخشري مبيّناً العلل لذلك، فيقول: " وأما (لمّا) فظرف زمان إذا وقع بعده الماضي، نحو قولك (جئتُ لمّا جئت) ومعناه معنى (حين)، وهو الزمان المبهم وهو مبني لإبهامه واحتياجه إلى جملة بعده، كبناء (إذ) و(إذا). وهو مركب من (لم) النافية و(ما) فتحصل فيها بالتركيب معنىً لم يكن لها وهو الظرفية وخرجت بذلك إلى حيز الأسماء، فاستحالت بالتركيب من الحرفية إلى الاسمية، كما استحالت (إذ) بدخول (ما) عليها من الاسمية إلى الحرفية، وتغير معناها بالتركيب من المضي إلى الاستقبال "[82]، فعلّة جعلها اسماً هي التركيب الذي حدث في (لمّا) وما تكون فيها من معنى الظرفية بسبب هذا التركيب.

ويذكر ابن هشام هذين الرأيين دون ترجيح، إلا أن في ظاهر كلامه دفاعاً عن الظرفية واستحساناً لها، فيقول عن (لمّا): " يقال فيها: حرف وجود لوجود، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وزعم ابن السراج وتبعه الفارسي وتبعهما ابن جنّي وتبعهم جماعة أنها ظرف بمعنى حين، وقال ابن مالك: بمعنى (إذ)، وهو حسن لأنها مختصة بالماضي وبالإضافة إلى الجملة "[83] فابن هشام يثبت الرأيين، حيث يجوّز إعرابها حرفاً لا محل له من الإعراب كما يجوّز إعرابها ظرفاً العامل فيها جوابها، ويستحسن رأي ابن مالك الذي يرى أن (لمّا) هنا بمعنى (إذ).

وإذا ما نظرنا لآراء بعض النحاة المحدثين وجدنا المسألة لا زالت محلَّ نقاش، فنجد صاحب "النحو الوافي" يذهب إلى أن الرأي المشهور فيها أنها " ظرف زمان بمعنى حين "[84]، ونجد الشيخ مصطفى الغلاييني يدرجها في الظروف على أنها " ظرف للزمان الماضي بمعنى (حين) أو (إذ)، وهي تقتضي جملتين فعلاهما ماضيان، ومحلها النصب على الظرفية لجوابها، وهي مضافة إلى جملة فعله الأول "، ثم نجده يقول: " والمحققون من العلماء يرون أنها حرف لربط جملتيها، وسموها حرف وجود لوجود "[85].

وخلاصة الأمر في هذا الخلاف أن النحاة يقولون في إعرابها: (لمّا) ظرف زمان منصوب، أو حرف ربط لا محل له من الإعراب[86]، حيث إن ذلك لا يقتضي تغييراً في نطق الكلام، أو خروجاً به من تركيب إلى آخر، ولأن لكل من الطرفين حججه وأدلته التي لا يمكن تجاهلها، فلا يُخطأ من أخذ بأي من الرأيين.

ولتأكيد ما تحتاجه كلمة (لمّا) من الدقة في تحديد أنواعها ومعانيها فإنه لا بد من الإشارة إلى خطأ[87]ابن هشام الأنصاري الذي أورد في مغني اللبيب قوله تعالى: (أولمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا)[88] مستشهداً به على أن الهمزة تدخل على النفي كما تدخل على الإثبات[89]، فهو يقصد بالنفي هنا كلمة (لمّا) التي اعتقد أنها جازمة تفيد النفي، بينما هي (لمّا) الحينية التي أشار الزمخشري إلى أنها ظرف " نصب بقلتم و(أصابتكم) في محل الجر

بإضافة (لمّا) إليه تقديره: أقلتم حين أصابتكم "[90].

فمع أن ابن هشام الأنصاري ذو بصيرة عظيمة، ودقة نظر مدهشة بمعرفة أساليب القرآن ومعاني ألفاظه وتراكيبه، إلا أنه لم يسلم . رحمه الله . من أن يخطأ . سهواً . في تحديد نوع (لمّا) ومعناها.

ومن المسائل المهمة التي وردت في هذا البحث ما أضافه الزمخشري من معنى التوقع لحصول منفي (لمّا) الجازمة في المستقبل. جاعلاً هذا الفرق هو الأهم في التفريق بينها وبين (لم) الجازمة في السياق القرآني، وقد أشار الباحث إلى إعجاب ابن هشام بهذه اللمحة التي نسبها إلى الزمخشري[91]، وكان أبو حيان الأندلسي قد أشار إلى تفرد الزمخشري وأسبقيته في الإشارة إلى هذا الفرق فقال: " وهذا الذي قاله في لمّا أنها تدل على توقع الفعل المنفي بها فيما يستقبل، لا أعلم أحداً من النحويين ذكره، بل ذكروا أنك إذا قلت: لمّا يخرج زيدٌ دل على انتفاء الخروج فيما مضى متصلاً نفيه إلى وقت الاخبار، أما أنها تدل على توقعه في المستقبل، فلا"[92].

ويدل كلام أبي حيان على تشكيكه بهذا الرأي الذي جاء به الزمخشري، حيث لم يذكره أحد من النحويين غيره ويقول في موضع آخر " ويحتاج كلام الزمخشري إلى نظر "[93]، إلا أن هذا الموقف لا يقلل من شأن هذا الفرق الذي لمحه الزمخشري، حيث أضحى فرقاً واضحاً يُعتدّ به في كتب النحو من خلال شهادة ابن هشام بأن الذوق والاستعمال يشهدان بإقرار الزمخشري على ما ذهب إليه[94]. والذي لا زال يؤكد على هذا الفرق في كتبه فذكره في أوضح المسالك وعلى أساسه منع أن يقال: (لمّا يجتمع الضدان)[95].

وإنّ نظرة فاحصة في آيات الذكر الحكيم التي جاءت فيها (لمّا) الجازمة تجعلنا مطمئنين إلى ما ذهب إليه الزمخشري إذ كيف نفهم هذه الآيات دون أن نتوقع حدوث ما نفته (لمّا) في المستقبل. ومن هذه الآيات

قوله تعالى: (بل هم في شك من ذكري بل لمّا يذوقوا عذاب)[96] وقوله تعالى: (وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)[97] وقوله تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) [98] وقوله تعالى: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم)[99] حيث لا نستطيع أن نجزم بعدم وقوع ما نفته لمّا من عذاب للشاكين بما جاء في كتاب الله، كما لا نستطيع أن نجزم بأن هؤلاء الذين يتمنون الشهادة يستمرعدم أو نفي لحاقهم بإخوانهم الذين سبقوهم في الشهادة، ويقول محيي الدين الدرويش في إعرابه لقوله تعالى:(ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم): " لمّا حرف نفي وجزم، و(يدخل) فعل مضارع مجزوم بلمّا، وما في لمّا من معنى التوقع دال على أنهم قد آمنو فيما بعد "[100].

وفي حديث ابن هشام حول قوله تعالى: (وإنّ كلاً لمّا ليوفينهم ربك أعمالهم)[101] . وهي آية كثر الخلاف حول إعرابها[102] . نراه يذهب إلى أن (لمّا) هنا هي (لمّا) الجازمة، وتحتاج إلى تقدير فعل مجزوم بعدها، وهو بذلك يوافق ابن الحاجب الذي قدر فعلاً مجزوماً هو (يتركوا) أو (يهملوا)، إلا أن ابن هشام خالفه في تقدير الفعل مستعيناً بما أضافه الزمخشري حول ما في (لمّا) الجازمة من توقع لحصول منفيها في المستقبل، إذ يقول ابن هشام: " وفي تقديره نظر، والأولى عندي أن يقدره (لمّا يوفوا أعمالهم) أي إلى الآن لم يوفوها وسيوفونها، ووجه رجحانه أمران:

أحدهما: أن بعده (ليوفينهم) وهو دليل على أن التوفية لم تقع بعد وأنها ستقع.

والثاني: أن منفي لمّا متوقع الثبوت كما قدمنا، والإهمال غير متوقع الثبوت، ولا تحتمل (لمّا) أن تكون بمعنى (إلا) عنده إلا إذا خففت (إن) وكانت نافية مع تشديد الميم في (لمّا) "[103] وهو بذلك يتفق مع ما ذهب إليه الزمخشري والنحاة غيره في ما يجب أن تسبق به (لمّا) من النفي حتى تؤدي أسلوب الحصر.

وإذا ما تتبعنا آراء المفسرين والنحاة في الآيات التي جاءت فيها (إن) النافية و، (لمّا). مشددة ومخففة الميم .

التي عرضتُ لرأي الزمخشري فيها في مبحث (لمّا) الاستثنائية لوجدنا الزمخشري يتفق مع النحاة والمفسرين فيما قالوه حول هذه الآيات، إذ نجد القرطبي يقول في تفسيره لقوله تعالى: (وإن كلٌ لمّا جميع لدينا محضرون): " يريد يوم القيامة للجزاء وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة (وإن كلٌ لمّا) بتشديد (لمّا) وخفف الباقون، و(إن) مخففة من الثقيلة وما بعدها مرفوع بالابتداء، وما بعده الخبر فرقاً بينها وبين (إن) التي بمعنى ما، و(ما) عند أبي عبيدة زائدة، والتقدير عنده وإن كلٌ لجميع، قال الفرّاء: ومن شدد وجعل (لمّا) بمعنى إلا و(إن) بمعنى (ما): ما كلٌ إلا لجميع، كقوله (إن هو إلا رجل به جنّة) وحكى سيبويه في قوله (سألتك بالله لمّا فعلت)، وزعم الكسائي أنه لا يعرف هذا، وقد مضى هذا المعنى في هود وفي حرف أُبي (وإن منهم إلا جميع لدينا محضرون) "[104].

فالقرطبي يقصد بالإشارة إلى سورة هود قوله تعالى: (وإنّ كلاً لمّا ليوفينهم ربك أعمالهم) والتي ناقشها طويلاً وقدم فيها أوجه التخريج لهذه الآية وقراءاتها[105] إلا أن معنى الإستثناء في (لمّا) فيها ليس قوياً لأن (إنّ) هنا عاملة للنصب وليست حرف نفي وقد رأينا كيف أخرج الزمخشري هذا الرأي القائل بأن

(لمّا) في هذه الآية بمعنى (إلا) مقدِّماً أن تكون مركبة كما قدمتُ.

ولم يمنع رفض الكسائي . إمام المرسة الكوفية . لأن تكون (لمّا) بمعنى (إلا) النحاةَ من الإقرار بهذا الرأي والأخذ به في التفسير وتخريج القراءات القرآنية، يقول الألوسي . الذي يهتم في تفسيره بالمسائل النحوية . عند تفسيره لقوله تعالى: (وإن كلٌ لمّا جميع لدينا محضرون): " وإن نافية، وكل مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه، و(لمّا) بمعنى (إلا) ومجيئها بهذا المعنى ثابت في لسان العرب بنقل الثقات فلا يلتفت إلى زعم الكسائي أنه لا يعرف ذلك "[106].

يتضح لنا موقف المفسرين والنحاة كذلك وتوافق الزمخشري معهم من خلال تفسير القرطبي لقوله تعالى: (إن كل نفس لمّا عليها حافظ) فيقول: " إن مخففة من الثقيلة و(ما) مؤكدة إن كل نفس لعليها حافظ، وقيل المعنى: إنّ كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها من الآفات ..... وقراءة ابن عامر وعاصم وحمزة (لمّا) بتشديد الميم، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ وهي لغة هذيل، يقول قائلهم: انشدتك لمّا قمت، والباقون بالتخفيف على أنها زائدة مؤكد، كما ذكرنا [107].

فقد أثبت النحاة والمفسرون أن (لمّا) بتشديد الميم جاءت بمعنى (إلا) الاستثنائية في قوله تعالى: (وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون)[108] وقوله: (وإن كل ذلك لمّا متاع االحياة الدنيا)[109] وقوله: (إن كل نفس لمّا عليها حافظ)[110].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة على البعوث بالنور والهدى والخيرات وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فهذه خاتمة البحث أودعتها أهم النتائج:

* يذهب الزمخشري إلى أن (لمّا) الحينية ظرف منصوب العامل فيه جوابها، وتقتضي جملة تضاف إليها وهو بذلك يتابع إمام المدرسة البغدادية " أبي علي الفارسي " وهذا يؤكد على أن الزمخشري من أتباع المدرسة البغدادية، التي قد تخالف البصريين في بعض القضايا النحوية، إلا أن الزمخشري لم يشر إلى أن . سيبويه . يذهب إلى أنها حرف لا محل لها من الإعراب، اقتناعاً من قبل الزمخشري برأيه وتأكيده من جهة، ولأن هذا الخلاف لا يؤثر في معنى الجملة وتركيبها، حيث كان الزمخشري مهتما بالمعنى اهتماماً عظيماً.

* ولقد تجلت بصيرة الزمخشري الثاقبة في كلامه حول جواب (لمّا) وحذفه إذ كان هذا الحذف في السياق القرآني أبلغ من التصريح به، لأنه يعطي السامع فرصة إعمال ذهنه في تقدير جواب يتفق مع مقتضى الحال في السياق القرآني وقصصه، ذاهباً إلى تقدير جواب محذوف أولى من مجيئه فعلاً مضارعاً في تفسيره لقوله تعالى: (ولمّا ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) مشيراً كذلك إلى أسرار تتابع (لمّا) المتصلة بالفاء وما تؤديه من ربط للنتائج بمسبباتها، ومضيفاً إلى (لمّا) معنى المباشرة والمفاجأة في ذاتها دون اتصالها بإذا الفجائية. مما يجعل هذا كله متفقاً مع ما قدمته في المبحث الأول حول اهتمام الزمخشري بالمعنى الدلالي والبلاغي وربطه بالتراكيب النحوية.

* ولقد ذكر النحاة فروقاً تميز (لم) الجازمة عن (لمّا) الجازمة إلا أن الزمخشري أضاف فرقاً مهماً وهو توقع حصول منفي (لمّا) في المستقبل، وعدم ذلك في (لم) مما يجعله يطلق على (لمّا) تعبير كلمة التوقع وهو فرق مهم، إذ لا يمكن فهم وتفسير الآيات التي جاءت فيها (لمّا) الجازمة إلا مع توقع حصول منفيها في المستقبل وقد اهتم ابن هشام بهذا الفرق وأقام عليه أدلته في بعض المواضع وإن كان أبو حيان الأندلسي قد شكك في هذا الرأي، إلا أنه غدا فرقاً ثابتاً في كتب النحو يذكره النحاة إذا ما أرادوا التفريق بين (لم) و(لمّا) الجازمتين.

* ومن خلال استعراض الآيات التي قال النحاة أن (لمّا) فيها استثنائية بمعنى (إلا)، فقد تبين أن الزمخشري يشترط أن تكون (لمّا) مشددة غير مخففة . لأنها إن خففت أصبحت مركبة من اللام وما الزائدة للتأكيد . ومسبوقة بنفي كذلك، حيث كانت (إن) هي النافية في الآيات التي كانت (لمّا) فيها بمعنى (إلا) بينما هي لا تكون استثنائية في قوله تعالى: (وإنّ كلاً لمّا ليوفينهم ربك أعمالهم) إلا فيمن جعل (إن) مخففة نافية ورفع (كلٌ) وهي قراءة شاذة حيث يتفق الزمخشري في ذلك مع جمهور النحاة مخالفاً الكسائي الذي رفض أن تكون (لمّا) بمعنى (إلا).

* وقد كانت لهذه الآراء التي قدمها الزمخشري أهمية وثبات لأنها لا تتصل بمذهبه الاعتزالي وإنما هي نابعة من خلال معرفته العظيمة بعلوم العربية وعلوم التفسير من جهة وقوة ذهن وتفكر عظيم من جهة أخرى، مسخراً هذا كله في استنباط إعجاز آي الذكر الحكيم، واقفاً على لطائف وأسرار نظمه المبين .

* كما تحتاج (لمّا) إلى الدقة في تحديد أنواعها ودلالاتها إذ إنّ ابن هشام نفسه قد أخطأ سهواً في تحديد نوعها، مما يتطلب منا التريث وإعمال الذهن عند الحديث عنها ومحاولة التحديد لأنواعها.

الهوامش

(1) لقب الزمخشري نفسه بجار الله لأنه جاور مكة وفيها ألف تفسيره (الكشاف).
(2) ينظر في ترجمة الزمخشري، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج19/ص(126) وما بعدها، دار مأمون، مراجعة وزارة المعارف، ضمن سلسلة الموسوعات العربية ، الطبعة الأخيرة.
(3) ينظر في ذلك البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص(243)، دار المعارف، مصر، ط9.
(4) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للإمام أبي القاسم الزمخشري ت(539)، ج1/ص(7)، رتبه ووضعه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1995) م.
(5) ينظرالبلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص(221) وما بعدها، ص(373).
(6) ينظر التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، د.وليد قصّاب، ص(285).
(7) الكشاف، الزمخشري، ج1/ص(7).
(8) المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص(284)، دار المعارف، مصر، ط6.
(9) ينظر الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري، فاضل السامرائي، ص(235) وما بعدها.
(10) {لقمان : 33}
(11) الكشاف، الزمخشري، ج3/ص(488) وما بعدها.
(12) الكتاب، سيبويه، ج4/ص(234)، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط3، (1988).
(13) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري (761هـ) ، ج1/ص(270).
(14) النحو الوافي، عباس حسن، ج3/ص(296)، ط4.
(15) المفصّل، الزمخشري، ص(173).
(16) {هود : 13}
(17) الكشاف، الزمخشري، ج2/ص(322).
(18) { آل عمران :16}
(19) الكشاف ، الزمخشري ، ج1/ص(427).
(20) {هود : 101}
(21) الكشاف ، الزمخشري ، ج2/ص(411).
(22) ينظر النحو الوافي، عباس حسن، ج2/ص(299).
(23) {البقرة : 17}
(24) {يوسف : 15}
(25) الكشاف ، الزمخشري ، ج1/ص(80).
(26) الكشاف ، الزمخشري، ج1/ص(80).
(27) {الصافات : 103. 105}
(28) الكشاف ، الزمخشري، ج4/ص(53).
(29) {يوسف :15}
(30) الكشاف ، الزمخشري، ج2/ص(432).
(31) {البقرة : 89}
(32) الكشاف ، الزمخشري، ج1/ص(165).
(33) {هود : 74}
(34) ينظر على سبيل المثال مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري ، ج1/ص(270).
(35) وهذا يتعاضد مع ما قلته حول أن هذا الحذف كان أوضح المواقع التي حذف فيها الجواب.
(36) {يوسف : 15}
(37) الكشاف، الزمخشري ، ج2/ص(396).
(38) {الأعراف : 189.190}
(39) {الأنعام : 75.79}
(40) {غافر : 82.85}
(41) الكشاف ، الزمخشري، ج4/ص(178).
(42) {الأحقاف : 7}
(43) الكشاف، الزمخشري، ج4/ص(288).
(44) {ق : 5}
(45) الإضراب الأول (بل عجبوا أن جاءهم منذر) الآية(2).
(46) الكشاف، الزمخشري، ج4/ص(371).
(47) {الأعراف : 135}
(48) الكشاف، الزمخشري، ج2/ص(143).
(49) ينظر أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري ت(761)، ج4/ص(146) وما بعدها، ط1، (1998).
(50) {البقرة : 214}
(51) الكشاف، الزمخشري، ج1/ص(253).
(52) {الحجرات : 14}
(53) الكشاف، الزمخشري، ج4/ص(366).
(54) {يونس : 39}
(55) الكشاف ، الزمخشري، ج2/ص(335).
(56) {ص : 8}
(57) شرح قطر الندى وبلُّ الصدى ، ابن هشام الأنصاري (761)، ص(84) ، تحقيق الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت، ط1، (1988).
(58) ينظر رصف المباني في شرح حروف المعاني ، للإمام المالقي، ص(352) وما بعدها، ط2، (1985).
(59) {هود : 111}
(60) {يس : 32}
(61) {الزخرف : 35}
(62) {الطارق : 4}

(63) ينظر في هذا الخلاف : المشكل في إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب (437هـ)، ج1/ص(415) وما بعدها، تحقيق ياسين السّوّاس، دار المأمون للتراث ، دمشق.
(64) الكشاف ، الزمخشري ، ج2/ص(416).
(65) المشكل في إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب، ج1/ص(415).
(66) كتاب تحبير التيسير في القراءات العشر، ابن الجزري (833هـ)، ص(408)، تحقيق أحمد مفلح القضاة، دار الفرقان، عمّان، ط1، (2000).
(67) {يس : 32}
(68) الكشاف، الزمخشري، ج4/ص(13).
(69) تحبير التيسير في القراءات العشر ، ابن الجزري ، ص(408).
(70) الكشاف، الزمخشري ، ج4/ص(243).
(71) تحبير التيسير في القراءات العشر ، ابن الجزري ، ص(548).
(72) قرأها بتشديد الميم عاصم وابن عامر وحمزة ووافقهم أبو جعفر والبقية قرأها بتخفيف الميم ينظر. تحبير التيسير، ابن الجزري، ص(408).
(73) الكشاف، الزمخشري، ج4/ص(721) *المقصود بالقسم (والسماء والطارق).
(74) الكتاب، سيبويه، ج4/ص(234).
(75) مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، ج1/ص(369).
(76) ينظر المدارس النحوية، شوقي ضيف ، ص(245) وما بعدها.
(77) {يونس : 10}
(78) تفسير البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي (745هـ)، ج5/ص(134)، ط1.
(79) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج8/ص(311).
(80) {الفرقان : 37}
(81) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ، ج6/ص(457).
(82) شرح المفصل للزمخشري، تأليف ابن يعيش، وضعه وقدم له : إميل بديع يعقوب، ج3/ص(136)، منشورات "محمد بيضون" دار الكتب العلمية، بيروت.
(83) مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، ج1/ص(369).
(84) النحو الوافي، عباس حسن، ج2/ص(296).
(85) جامع الدروس العربية، الشيخ مصطفى الغلاييني، ج3/ص(68)، ط1.
(86) ينظر إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، ج1/ص(569)، ج5/ص(14)، ط7.
(87) ينظر في الإشارة إلى هذا الخطأ : إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، ج1/ص(569).
(88) {آل عمران : 165}
(89) مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، ج1/ص(21).
(90) الكشاف، الزمخشري، ج1/ص(427).
(91) ينظر لمّا الجازمة، المطلب الثاني من المبحث الثاني من هذا البحث ص(15).
(92) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج3/ص(72).
(93) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج5/ص(160).
(94) ينظر قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام الأنصاري، ج4/ص(148).
(95) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، ص(84)، وينظر مغني اللبيب، ج1/ص(368).
(96) {ص : 8}
(97) {الجمعة : 3}
(98) {البقرة : 214}
(99) {الحجرات : 14}
(100) إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، ج7/ص(260).
(101) {هود : 111}
(102) ينظر مشكل إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب القيسي، ج1/ص(415) ومابعدها.
(103) ينظر مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، ج1/ص(371).
(104) الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، المجلد الثامن ص(24)، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.
(105) الجامع لأحكام القرآن، المجلد الخامس ص(104).
(106) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الألوسي، المجلد الثاني عشر ج23/ص(70)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1994).
(107) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، المجلد العاشر ج20/ص(3)
(108) {يس : 32}
(109) {الزخرف : 35}
(110) {الطارق : 4}

المصادر والمراجع

إعراب القرآن الكريم وبيانه : محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، بيروت، ط7، (1999) (2000).

البلاغة فنونها وأفنانها . علم المعاني : فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، ط6، (2000).

تحبير التيسير في القراءات العشر : ابن الجزري (833هـ)، تحقيق أحمد مفلح القضاة، دار الفرقان، عمّان، ط1،

التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة : وليد قصّاب، دار الثقافة، الدوحة، (1985).

تفسير البحر المحيط : أبو حيّان الأندلسي (745هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1993).

جامع الدروس العربية : مصطفى الغلاييني، مراجعة الدكتور محمد النادري، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، (1994).

الجامع لأحكام القرآن : القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.

الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري : فاضل السامرائي، دار النذير، (1975).

رصف المباني في شرح حروف المعاني : المالقي، تحقيق أحمد محمد الخرّاط، دار القلم، دمشق ، ط2، (1985).

روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني : محمود الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1994).

شرح المفصل للزمخشري : ابن يعيش، وضعه وقدم له : إميل بديع يعقوب، منشورات "محمد بيضون" دار الكتب العلمية، بيروت.

شرح قطر الندى وبلُّ الصدى : ابن هشام الأنصاري (761)، تحقيق الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، ط1، (1988). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : تحقيق مازن المبارك وغيره، منشورات سيد الشهداء.أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : تحقيق محمود الحلاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، (1998).

الكتاب، سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط3، (1988).

المدارس النحوية: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط6. البلاغة تطور وتاريخ: دار المعارف، مصر، ط9.

المشكل في إعراب القرآن : مكي بن أبي طالب (437هـ)، تحقيق ياسين السّوَاس، دار المأمون للتراث، دمشق.

معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار مأمون، مراجعة وزارة المعارف، ضمن سلسلة الموسوعات العربية ، الطبعة الأخيرة.

المفصّل في صنعة الإعراب : أبو القاسم الزمخشري، دار الجيل، بيروت، ط2. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : رتبه ووضعه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1995) م.

مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، روجع بمعرفة لجنة من العلماء، المكتبة التجارية.

النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، مصر، ط4.

The Types of (Lamma) and their Meanings in the Qur'an through the Interpretation of "Alkshaf" for Zmkshcri

*Nizar A. Saleh**

ABSTRACT

This paper deals with the types of (Lamma) and their meanings in the Qur'an through the interpretation of the Alkshaf for Zmkshcri, where it spoke about alzmkshri grammatical and rhetorical culture , and interpreted alkashaf book in terms of its importance and the methodology of the author. He also spoke about the three types of (lamma) in the Holy Qur'an (of timely and authoritative and exceptional), indicating the position of Zamakhshari of each type of these species, and some references to the professional and minutes uses in the Qur'an Aye. Also compared between the views of the researcher Zamakhshari about the three types of (lamma) and the views of other commentators and grammarians, noting those views which singled out Zamakhshari. The researcher concluded that the Zamakhshari in his views didn't speak about his etezaali doctrine , but rather about his proficiency in semantics and Rhetoric, which infused strength and stability. Then It was the Conclusion where the researcher deposited the most important search results.

criminal liability find a legal basis to it in Jordanian and the Emirati laws that is the focus of the study.

Keywords: Types of Lamma, qura'n, Zmkshcri.

* The World Islamic Sciences and Education University, Jordan. Received on 17/6/2013 and Accepted for Publication on 10/11/2013.